

تفسير ابن كثير

روى مسلم في صحيحه والنسائي في تفسيره عند هذه الآية من حديث مسعر بن كدام عن الوليد بن سريـع عن عمرو بن حريـث قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم الصبح فسمعتـه يقرأ { فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس } ورواه النسائي عن بـندار عن غـندر عن شـعبة عن الحجاج بن عاصم عن أبي الأسود عن عمرو بن حريـث به نحوه قال ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق الثوري عن أبي إسحاق عن رجل من مراد عن علي { فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس } قال : هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب سمعت خالد بن عرعة سمعت عليا وسئل عن لا أقسم بالخنس الجوار الكنس فقال : هي النجوم تخنس بالنهار وتكنس بالليل وحدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن إسرائيل عن سماك عن خالد عن علي قال : هي النجوم وهذا إسناد جيد صحيح إلى خالد بن عرعة وهو السهمي الكوفي قال أبو حاتم الرازي : روى عن علي وروى عنه سماك والقاسم بن عوف الشيباني ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا فإنه أعلم وروى يونس عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي : أنها النجوم رواه ابن أبي حاتم وكذا روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وغيرهم أنها النجوم .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار حدثنا هوزة بن خليفة حدثنا عوف عن بكر بن عبد الله في قوله تعالى : { فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس } قال : هي النجوم الدراري التي تجري تستقبل المشرق وقال بعض الأئمة إنما قيل للنجوم الخنس أي في حال طلوعها ثم هي جوار في فلـكها وفي حال غيـوبتها يقال لها كنس من قول العرب أوى الطـبي إلى كناسه إذا تغيب فيه وقال الأعمش عن إبراهيم قال : قال عبد الله { فلا أقسم بالخنس } قال بقر الوحش وكذا قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عن عبد الله { فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس } ما هي يا عمرو ؟ قلت البقر قال وأنا أرى ذلك وكذا روى يونس عن أبي إسحاق عن أبيه وقال أبو داود الطيالسي عن عمرو عن أبيه عن سعيد بن جبـير عن ابن عباس الجوار الكنس قال البقر تكنس إلى الظل وكذا قال سعيد بن جبـير وقال العوفي عن ابن عباس هي الطباء وكذا قال سعيد أيضا ومجاهد والضحاك وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد هي الطباء والبقر وقال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا مغيرة عن إبراهيم ومجاهد أنهما تذاكرا هذه الآية { فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس } فقال إبراهيم لمجاهد قل فيها بما سمعت قال : فقال مجاهد كنا نسمع فيها شيئا وناس يقولون إنها النجوم قال : فقال إبراهيم قل فيها بما سمعت قال : فقال مجاهد كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حجرتها فقال إبراهيم إنهم يكذبون على

علي هذا كما روي عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى والأعلى الأسفل وتوقف ابن جرير في المراد بقوله : { الخنس * الجوار الكنس } هل هو النجوم أو الأطباء وبقر الوحش قال ويحتمل أن يكون الجميع مراداً .

وقوله تعالى : { والليل إذا عسعس } فيه قولان أحدهما إقباله بظلامه وقال مجاهد أظلم وقال سعيد بن جبير إذا نشأ وقال الحسن البصري إذا غشي الناس وكذا قال عطية العوفي وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس { إذا عسعس } إذا أدبر وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وكذا قال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن { إذا عسعس } أي إذا ذهب فتولى . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي البحتري سمع أبا عبد الرحمن السلمي قال : خرج علينا علي هـ حين ثوب المثوب بصلاة الصبح فقال : أين السائلون عن الوتر { والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس } هذا حين أدبر حسن وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : { إذا عسعس } إذا أدبر قال لقوله { والصبح إذا تنفس } أي أضاء واستشهد بقول الشاعر أيضاً : .

(حتى إذا الصبح له تنفساً ... وانجاب عنها ليلها وعسعسا) .

أي أدبر وعندي أن المراد بقوله { إذا عسعس } إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً لكن الإقبال ههنا أنسب كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضياؤه إذا أشرق كما قال تعالى : { والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى } وقال تعالى : { والضحى * والليل إذا سجد } وقال تعالى : { فالحق الإصباح وجعل الليل سكناً } وغير ذلك من الآيات وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة عسعس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما وإِـ أعلم وقال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن عسعس دنا من أوله وأظلم وقال الفراء : كان أبو البلاد النحوي ينشد بيتاً . (عسعس حتى لو يشأ أدنى ... كان له من ضوئه مقبس) .

يريد لو يشاء إذ دنا أدغم الدال في الدال قال الفراء وكانوا يزعمون أن هذا البيت مصنوع وقوله تعالى : { والصبح إذا تنفس } قال الضحاك : إذا طلع وقال قتادة إذ أضاء وأقبل وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ وهو المروي عن علي هـ وقال ابن جرير : يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبين وقوله تعالى : { إنه لقول رسول كريم } يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل E قاله ابن عباس والشعبي وميمون بن مهران والحسن وقتادة والربيع بن أنس والضحاك وغيرهم { ذي قوة } كقوله تعالى : { علمه شديد القوى * ذو مرة } أي شديد الخلق شديد البطش والفعل { عند ذي العرش مكين } أي له مكانة عند D ومنزلة رفيعة قال أبو صالح في قوله تعالى : { عند ذي العرش مكين } قال جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن { مطاع ثم } أي له وجهة وهو

مسموع القول مطاع في الملاً الأعلى قال قتادة { مطاع ثم } أي في السموات يعني ليس هو من أفناد الملائكة بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة .
وقوله تعالى : { أمين } صفة لجبريل بالأمانة وهذا عظيم جدا أن الرب D يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : { وما صاحبكم بمجنون } قال الشعبي وميمون بن مهران وأبو صالح ومن تقدم ذكرهم : المراد بقوله : { وما صاحبكم بمجنون } يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : { ولقد رآه بالأفق المبين } يعني ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله D على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح { بالأفق المبين } أي البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء وهي المذكورة في قوله : { علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى } كما تقدم تفسير ذلك وتقريره والدليل عليه أن المراد بذلك جبريل عليه السلام والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤيا وهي الأولى وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى : { ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى } فذلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

وقوله تعالى : { وما هو على الغيب بضنين } أي وما محمد على ما أنزله الله إليه بطنين أي بمتهم ومنهم من قرأ ذلك بالصاد أي ببخيل بل يبذله لكل أحد قال سفيان بن عيينة : طنين وضنين سواء أي ما هو بكاذب وما هو بفاجر والطنين المتهم والضنين البخيل وقال قتادة : كان القرآن غيبا فأنزله الله على محمد فما ضن به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراد وكذا قال عكرمة وابن زيد وغير واحد واختار ابن جرير قراءة الصاد { قلت } : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدم وقوله تعالى : { وما هو بقول شيطان رجيم } أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا ينبغي له كما قال تعالى : { وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون } وقوله تعالى : { فأين تذهبون } أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقا من عند الله D كما قال الصديق B لو فد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال : ويحكم أين تذهب عقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل أي من إله وقال قتادة { فأين تذهبون } أي عن كتاب الله وعن طاعته .

وقوله تعالى : { إن هو إلا ذكر للعالمين } أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون { لمن شاء منكم أن يستقيم } أي من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه منجاة

له وهداية ولا هداية فيما سواه { وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين } أي ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين قال سفيان الثوري عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى : لما نزلت هذه الآية { لمن شاء منكم أن يستقيم } قل أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى : { وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين } آخر تفسير سورة التكوين و الحمد والمنة